إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمله الرجل اليوم وينساه غداً، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه، أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع لها أثراً يغير فى مجرى حياته. فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء.

لكن العمل الذى تتحول به حياة الإنسان تحولا لا حاسمًا لن يرجع إلى سبب واحد، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدة أسباب، بعضها حديث وبعضها قديم، ومنها الظاهر الططيع والخفى المستعصى، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب.

فالرجل الذى يغير موطنه أو معيشته أو زيه لا يفعل ذلك عفو الساعة ولا تلبية لاقتراح يوحى فى مجلس فراغ. وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلباه، وأنه لم يكن ليلبيه لولا ما سمع فى تلك اللحزة العارضة، فهاجر هله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة.. وإنك سائلة ساعتئذ: "إنك قد هاجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبيت اقتراحًا، فهل تعلم لم لبيت الاقتراح؟" فإذا سألته ذلك السؤال رددته إلى نفسه، فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم. بل سمع الاقتراح ولباه لأنه كان قبل ذلك مستعداً للتحول ماضيًا فى طريقه. ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه.

وأين تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية، إننا إذا استصغرنا السبب الواحد فى تفسير تلك التغيرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جداً فى تفسير الحول الحاسم إلى دين جديد.

لأن الإنسان إذا غير معيشته فإنما يغير صناعة، وإذا غير مونه فإنما يغير، سمتا[1] يقون على كساء، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه

(١) السمت: الهيئة.

واستبدل به كونًا آخر، وقد غير ماضيه وماضى أهله، وغير حاضره وحاضر أهله، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد.

فسبب واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة.

ولابد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة وأسباب مهيئة، وأسباب موقوفة هى أظهر تلك الأسباب، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيرًا لذلك الحدث العظيم فى العالم، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم فى نظره حدث عظيم؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين عارضهما فى الإسلام وإلى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضغنه، وترويض عناده، والتقريب بينه وبين الخشوع الدينى والهداية الإسلامية. فهل تقف عند هذا الندم وكفى؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف؟

ومما لا شك فيه أن عمر كان مقتربًا من الإسلام يوم رثى لأم عبد الله بنت حنتمة تركها تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة. وكانت هى على صواب طمعت فى إسلامه ورجالها يائسون منه. فقد سألها عامر بن ربيعة مستغربًا مستبعدًا: كأنك قد طمعت فى إسلام عمر؟ قالت: نعم؟ قال: إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل فى خطفة عين. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب كيف تتلطف فى تحويله، وبتلك الرقة وكيف تتلطف فى ابتعاثها من مكمنها؟ ول تحدبها عنها القوة وهى ما نفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة؟

فعمر كان مقتربًا من الإسلام يوم رثى لـلمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله، وكـان على تمام الإسـلام يوم رأى الدم على وجـه أهتـه ورأى زوجهـا منطرحًا تحته لا يقوى على دفاع.

ولكنه كـمـا قلنا سـبب من أسبـاب، وأنه هو السـبب العـارض الذى يومىء[1] إلى السبب العـميق: سبب عارض هو الأسف لشكاية الضـعيف، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمل بذى نخوة كريم. وليس الإنسان كله ندمًا ورحمة وإن طال ندمه وطالت رحـمته. فليس كل ما احتوى رحمـته بمحتويه إلى زمن طويل.

وقد تعددت الروايات فى إسلام عـمر واختلف بعض هذه الروايات فى اللفظ واتفق فى المغـزى، وجعل أناس ينظرون فـيها كـأنما الصحـيح منها لا يكون إلا رواية واحـدة وسائرها باطل لا يشتـمل على حقـيقـة. فلم تكون صحـيحًا كلهـا؟ ولم لا تكون أسبابًا مـتعددات فى أوقـات مختلفـات؟ فمن المستطاع المعقول أن تسقط منها قليلا من الحشو هنا ثم نخلص منها إلى حملة أسباب لا تعارض بينهـا فى الجوهر، وقد يعزز بعضها بعـضًا فى نسق السيرة وفى لباب النتيجة.

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: " كنت للإسـلام مباعداً، وكنت صاحب خـمر من الجاهلية أحـبها وأشربهـا، وكان لنا مجلس فيـه رجال من قريش.. فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحداً. فقلت: لو أننى جئت فـلانا الخمار!... وخـرجت فجئـته فلم أجده، قـلت: لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سـبعًا وسبعين، فجئت المسجـد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى، وكان إذا صلى استقـبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليمانى. فقلت

---

(١) يومئ: يشير.

حين رأيته: والله لو أنى سمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! وقام بنفسى أننى لو دنوت أسمع منه لأروعنه[1]. فجئت من قبل الحجر[2]. فدخلت تحت ثيابها ما بين وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام".

إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام".

وروى ابن إسحق فى سبب إسلامه كما نقلنا عنه فى كتابنا "عبقرية محمد": "أن عمر خرج يومًا متوحشًا بشيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه.. قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر أبى قحافة الصديق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم.. فلقيه نعيم ابن عبد الله فقال له: ابن تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابىء[3] الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسبب آلتها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، قال وأى أهل بيتى؟ قال: ختنك[4] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعًا محمداً على دينه. فعليك بهما.

قال.. فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت

---

(١) لأروعنه: لأفزعنه.

(٢) الحجر: يكسر الحاء حطيم مكة، مدار البيت من جهة الشمال.

(٣) الصابئ: الخارج من دين إلى دين.

(٤) ختنك: الختن: الصهر، زوج لبنت أو الأخت.

فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[1] التى سمعت! قالا له: ما سمعت شيئا! قال: بلى والله. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته. نعم. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد.. وقرأ سورة طه، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خطبك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب. فالله الله يا عمر! فقال له عند ذلك عمر: دلنى يا خباب على محمد وحتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوحشه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل[2] الباب فرآه متوحشا بالسيف، فرجع إلى رسول الله وهو فزع. فقال: يا رسول الله! هذا عمر بن الخطاب متوحشًا السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: ائذن له، فإن كان يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ائذن له.. ونهض حتى لقية بالحجرة فأخذ بحجزته[3] أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة[4] شديدة وقال: ما جاء بك يا ابن عبد المطلب؟ فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة![5] فقال عمر: يا رسول الله! جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله!..".

---

(١) الهينمة: الكلام الخفى غير الواضح. (٢) الخلل: الفرجة بين الشيئين.

(٣) بحجزته: الحجزة موضع شد الأزرار من الوسط. (٤) جبذ: جذب.

(٥) القارعة: الداهية.

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب " المباشرة" التى قربت بين عمر والإسلام، وتتفرع منها روايات منوعة يزيد بعضخا تارة أن عمر قد أوفد لقتل النبى من قبل قريش، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الآيات التى تقدمت الإشارة إليها فى سورة طه. وأشبهها بالتصديق أنه لم اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم "الرحمن الرحيم" فذعر وألقاها، ثم رجع إلى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر. فلما بلغ " . . وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين" قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو أنها قصة واحدة شطرين وزيدت عليها الحواشى والأطراف، فاختلف فى ألفاظها ومواعيدها واتفقت فى جوهرها ومدلولها، لأنها تمس نفس عمر من الناحية التى حى أشبه أن تهديه إلى طريق جديد.

وهى كلما أسلفنا - تجمع لنا الأسباب "المباشرة" التى اقترنت بإسلام عمر، ولا تغنينا عن الأسباب الأخرى التى هى أساس هذه الأسباب ومرجعها، ولأجلها كان خليقًا أن تأخذه بلاغة القرآن، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان.

فقد كان مهيأ للإسلام لا محالة، وكانت محافاته للإسلام خليقة أن تنتهى بعد قليل، وألا تطول إلا ريثما تعن المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير.

فلم يكن بين عمر والإسلام فى بداية الأمر إلا باب واحد للعداء.

وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحًا بينه وبين هذا الدين الجديد، ما هو إلا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه.

كان باب العداء بينه وبين الإسلام أنه رجل قوى غيور عزيز فى قومه. فإذا رجل يخرج عليهم فيفرق - كما قال - أمر قريش ويسفه أحلامها ويعيب دينها ويسبب آلهتها، فلا جرم يثور ويغضب وينقم، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض[1] المعابة عن شرف آبائه، ويرى أن غير عاد ولا باغ، وأن البغى والعدوان إنما يجيئان من قبل ذلك الرجل الخارج على قومه، حتى يتبين له بالحق يصدع به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان.

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والإسلام، وهو باب لا يطول مدخله فى نفس طبعت على العدل والإنصاف.

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين إلا كان موصولا لا بنفس عمر أوثق صلة، وما عملنا من سبب للإسلام إلا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار.

فربما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن، وأسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة، أو لأنهم جبلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضه موقوته حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب.

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم.

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر، بل كان فيه العلم المترفع المضىء بين الأعلام.

كان عمر بليغًا حسن النقد للبلاغة، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل، فكان يطرب لقول زهير:

---

(١) رحض الثوب: غسله ويرحض المعابة عن شرف آبائه: يزيلها.

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء[1]

ويقول كلما أنشده معجبًا: ما أحسن ما أقسم! وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل[2] بين القوافى ولا يتبع حواشى الكلام.

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه: "الآن اقرأ يا عبد الله".

وجاءه يومًا ما بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر: أما وإن زهيراً كان يقول فيكم فحسب، فقيل له: كذلك كنا نعطيه فنجزل. فعاد عمر يقول: ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم.

وجاه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: نابغة بنى ذبيان. فسألهم: ومن الذى يقول: أتيتك

أتيتك عاربا خلقًا ثيابى على وجل تظن بى الظنون[3]

فألقيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: هو النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم.

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطيب:

والمرء سماع لأنر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

وينشده فيقول: على هذا بنيت الدنيا!..

وندر بين أئمة الدين من غاض فى أدب قومه غوصه، ووعى من أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه. قال الأصمعى: "ما قطع عمر أمراً إلا تمثل

(١) يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة، يمين حكومة أو بينه.

(٢) يعاظل: عاظل بالكلام عقدة وصعبه واستخدم حواشيه وغريبه.

(٣) الثوب الخلق: البالى.

فيه ببيت من الشعر". ونحن نرجع إلى الشعر الذى تمثل به فتراه فى أحسن موقع وأصدق شاهد، ونلمح من قليل أخباره فى خلوته أن الأدب كان جانبًا من جوانبه التى ترق فيه حاشيته، ويأنس فيه إلى قلبه، ويرجع فيه إلى قطرته جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه مستقليا على مزحفة له وإحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال:

وكيف ثوائى[1] بالمدينة بعدما قضى وطرا منها جميل بن معمرر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له: يا أبا محمد: إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس. ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية، بل نظر فى فنهم وفاضل بينهم فى بلاغتهم، ففضل امرأ القيس لأنه "سابقهم، خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر"[2]

ونوارده مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفة بالبلاغة الصادقة وحفظة لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره، كما تدل على ذلك خطبة ورسائله وشواهده وأمثاله.

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح. فقد نسبت إليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقتلته فى رثاء أخى. ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه، وأنه نشأ فى قوم يحبون مثل ما أحب ويعجبون بمثل ما أعجبه، ومنهم أبوه الذى نظم الشعر فى أكثر من مناسبة وروى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو بن أمية:

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجالا لا ينهها الوعيد[3]

---

(١) ثوائى: إقامتى.

(٢) خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصبح بصر: استنبط عين الشعر وثق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان. راجع باب "ثقافته".

(٣) لا ينهها الوعيد: أى لا يهابون التهديد.

ربيع المعدمين وكل جار إذا نزلت بهم سنة كشود[1]
هم الرأس المقدم من قريش وعند بيوتهم تلقى الوفود
فكيف أخاف أو أخشى عدوا ونصرهم إذا أدعو عتيد
فلست بعادل عنهم سواهم طوال الدهر ما اختلف الحديد[2]

إلى آخر ما نسب إليه.

فأقرب شيء إلى الواقع - وإلى المتوقع - أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب، وأن يخضع لآياته ويعجب لتفصيله فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء.

وكان عمر مستقيم الطبع مفطوراً على الإنصاف، فلم يكن رجل مثله ليستريح إلى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها إذا نبه إليه وهدى إلى ما هو خير منه.

وكانت النزعة الدينية وراثة فى أسرته على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الإسلام، وكان له قبل الإسلام رجل من عمومته يقدح فى الوثنية ويبحث عن الحق فى النصرانية واليهودية، ويبتلى أهله بالخلاف ويبتلونه بالإيذاء والحبس والإرهاق، ونعنى بن عمرو بن نفيل.

وعمر نفسه.. ألم يقل لنا أنه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات؟ ألم يكن فى الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل أسبوع؟ بل لعل صلابة الخطأ أبيه لم تكن فى صميمها شيئا مناقضا لعنصر الدين والإيمان. فإن هؤلاء الصلاب الشداد فى المحافظة على العرف هم أولئك المؤمنون[3] الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين.

---

(١) سنة كشود: شديدة مظلمة.

(٢) الحديد: الليل والنهار، يعنى أنه لا يعدل بهم قومًا آخرين مهما تعاقب الزمان.

(٣) المتزمت: الوقود المتشدد فى دينه.

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكانة[1] وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد ويبصر على البعد كما سلف فى حديث سارية حين ناداه يا سارية الجبل! يا سارية الجبل. وبينها مسيرة أيام.

وكانت العوارض تمر به فتعطفه إلى الإسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه. إذا ليس أبغض إلى الرجل الأنى المنصف من أن يحارب أناسا لا يحاربونه، ويلج فى إيذاء قوم لا يقدرون على أذاه.

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعًا بين عمر والإسلام فباب واحد موصد لن يحجبه طويلا عن هذا الدين، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه.

وقد تفتحت فى يوم من الأيام.

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب، وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغى أن يسلم، كما كان يقينًا سيسلم فى مناسبة من المناسبات.

فإذا العالم الإنسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة:

صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شىء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التى تسيطر على هذا الوجود: كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى، وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته، وكان يدًا خالقه حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التية فإذا هى صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضمائر والأذهان. جاهلى سبه الإسلام فكسبه العالم الإنسانى كله إلى آخر الزمان.. ونفس ضائعة ردت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر، واطلع منها على ما

---

(١) الزكانة: الفطنة والفراسة.

كان يجهل، ونفع بهـا أمته وأمما لا تحصى، وصنع بهـا الإسلام أعظم وأفخم قدرة ما تصنعه بناء وانشاء، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم قرأت كيف تلعو النفس الإنسانية حـتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان[1].

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعـة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامـه ولا يروى ضظأه إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يصحوا ولا ينام إلا ليعـدل ويعرف الحق، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمـتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس، وكـأنما العدل والحق دين عليه يطالبـه به ألف غريم، وهو وحـدة أقوى فى المطالبة بهـما من ألف غريم.

لقد كـان هذا الرجل المجيـد يبغض أن يظلم غيـره أشد من بغـضه أن يظلمه غيره. وهذه منزلة فى الأنفة تطاولها المنازل، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال.

وإننا لنعلم كم حـز فى فى قلبه الكريم أن يضرب بـريئًا على دين الحق كلمـا رجـعنا إلى أيامـه الأولى بعـد الإسلام، وهى أيـام لا تنسى فى تاريخ البطولة والأبطال.

فمـا شغله أمر بعـد إعلان الدين إلا أن يخرج ليـضربه أناس كمـا كان يضرب أناسًا فى سبيل ذلك الدين.

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم، فقام خـاله يسأل: ما هذه الجماعة؟ قـيل له ابن ابن الخطب قـد صبـأ.. فقـام على الحـجر فنادى: إلا أننى قـد أجرت[2] ابن أختى: فانكشف الناس عنه. فكان لا يزال يرى مـسلمًا يضرب

(١) الأشجان "جمع شجن" والشجن: ألهم والحزن والحاجة الشاغلة.

(٢) أجاره: أى أدخله فى حماه ورعايته وجواره.

أحد، وثقل عليه ألا يصيبه المسلمين، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس فى الحجر وناداه: اسمع!.. جوارك مردود عليك[1]. قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى: لا تفعل يا ابن أختى. فأصر على رد جواره، وطاب له بعد أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص، وإن كفر عنها بالتوبة وإعزاز الدين الذى آذاهم من أجله.

وأبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه، وإلا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فى أمثالهم، وأن يتحدى قريشًا بحقه منذ آمن بأمهم على باطل. فسأل أناسا: أى أهل مكة أنقل للحديث؟ قيل له حميل بن معمر الجمحى.. فذهب إليه فصرح له بإسلامة!.. ولم يكذب الرجل الظن به، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أ،دية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد: يا معشر قريش! ألا أن عمر بن الخطاب قد صبأ.. وعمر يقول من خلفه: كذب! ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيثب على أدناهم منه وأجرأهم عليه - عتبة بن ربيعة - فيصرعه ويبرك عليه يضربه ويدخل أصبعيه فى عينيه لأنهما عمياوان عن الحق لا يبصران النور! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحدا " إلا أخذ شريف من دنا منه" حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه[2] وهو يقول لهم: " افعلوا ما بدا لكم. فو الله كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم". افعلوا ما بدا لكم! وهذا ما أراد. فما يستريح وجدانه الحى أن يضرب مسلمًا لإسلامه ولم يضرب كافرًا لكفره، وما شعر أنه وفى لله دينه وقد

---

(١) أى: أعفى من حمايتك.

(٢) يثلبونه: يشتمونه ويعيرونه.

ضرب ولم يضرب آذى أناسًا ولم يؤذه أحد، وما تهدأ حاسة العدل فيه - وقد كانت كأنها من حواس بدنه - إلا أن يحس القصاص فى نفسه كما أحسن المضربون بالأمس عدوانه فى أنفسهم.

وراح يسأل النبى: يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ فقال عليه السلام: بلى! والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. قال: فقيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن!

"فما لبث النبى أن خرج فى صفين أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة، ولهما كديد[1] كأنه كديد الطحين، فدخلوا المسجد وقريش وتنظر تعلوخا كآبة فلا جرؤ سليط[2] منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهام هذان.. وسملء النبى يومئذ الفاروق.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: "ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه واتنضى فى يده أسهمًا واختصر عنزته[3] ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف فى البيت سبعًا متمكنًا، ثم اتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق[4] واحدة واحدة يقول لهم: شاهدت[5] الوجوه! لا يرغن الله إلا هذه المعاطس[6]! من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولدة أو يرمل زوجته[7] فليلقنى وراء هذا الوادى.."

لقد كان فى تحديه هذا لقريش عدتان: شجاعته وعدله.. فما كانت شجاعته فى هذا التحدى بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه أظهر من

---

(١) كديد: التراب الناعم. (٢) السليط: البذىء اللسان.

(٣) العنزة: عصا لها زج كالرمح الصغير، واختصرها، اعتمد عليها فى مشيه.

(٤) الحلق جمع حلقة" والحلقة: القوم يجتمعون مستديرين.

(٥) شاهت الوجوه: قبحت. (٦) المعاطس "جمع المعطس" والمعطس: الأنف.

(٧) أى يجعل أمه تشكل، أو ولده أو زوجته أرملة: يعنى "أن أقتله".

شجاعته. إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم لأنه شديد الإحساس بذله، ومن كان شديد العادل الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه، فذلك هو التحدى الذى يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل فى وقت واحد، وإن الموت لأهون من الصبر على هذا التحدى المرذول وهذا النصف القبيح. وما الشجاعة إن لم تكن هى الجرأة على الموت كلما وجب الاجتراء عليه؟ وأى امراء أولى بالجرأة من الشجاع الذى يعلم أن الحق بين يديه؟ ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا؟ فعلى الحق إذن فلنمت ولا نعيش على الباطل، فالباطل كريه والجبن كريه، وذلك ملتقى العدل والشجاعة فى قلب العادل الشجاع.

ونهج عمر طريقه فى الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام: كلاهما طريق صراحة وقوة لا يطبق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الحد الذى لا عبث فيه.. فلا وهن ولا رياء، ولا حذلقة ولا ادعاء وما شتت يعد ذلك من إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر بن الخطاب.

قال فى بعض عظاته: ولا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته، ولكن انظروا من إذا حدث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشقى - أى هم بالمعصية - ورع".

وقال فى هذا المعنى: "لا يعجبكم من الرجل طنطنته، ولكن.. من أدى الأمانة إلى من ائتمنه، وسلم الناس من يده ولسانه".

وقال فى عمل الدنيا والآخرة: "ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه. وإنما الحرج فى الرغبة فيما تجاوز الحاجة على حد الكفاية.."

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوانى ليقال إنه متوكل على الله، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك، أو يفرط[1] فى العبادة ليقال أنه زاهد فى الدنيا.

---

(١) أفرط إفراطًا: أسرف وتجاوز الحد، ويعكس التفريط.

فكان يقوم: "إن المتوكل الذى حبة فى الأرض ويتوكل على الله"..
و"لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول ارزقنى. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض".

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع فى الدين، فنظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرة وقال: "لا تمت علينا دينا أماتك الله"، وأشاروا إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له: كل يا دهر! كل يا دهر!.. ينهاه عن الصوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين.

وكان كلما رأى شابًا رأسه صاح به: "ارفع رأسك فإن الخشوع على ما فى القلب، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما فى قلب فإنما أظهر للناس نفاقًا إلى نفاق".

وإنما كان يعجبه "الشاب الناسك نظيف الثوب طيب الرائحة"، ويرى المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمى والعموم والفروسية، "فأنتم بخير" كما قال "ما نزوتهم[1] على ظهور الخيل".

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه فى ميدان الحياة، وليس بدين الواهن لهزوم الذى تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على الآخرة.

وكانت شجاعته فى دينه أندر الشجاعات فى النفوس الآدمية.. لأنها الشجاعة التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع. فإن كثيراً من الناس ليعدون من الصواب الذى يظهر هو بمظهر الخوف ليقال إنهم شجعان، وإنهم فى عدولهم عنه لمن الجبناء المستبعدين للشتاء، ولم يكن عمر يدل عن صواب فهمه ولو قيل فى شجاعته ما قيل، وتلك أشجع الشجاعات.

---

(١) النزو: الوثوب.

فشا طاعون عمواس وعمر فى طريقه إلى الشام، فلقبه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوت وأخبروه خبر الطاعون، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضى وناصح بالقفول: ناصح بالمضى فى طريقه يقول إنه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه؛ وناصح بالقفول يقول إنه اصطحب "بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء".. ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم تختلف عليه رجلان وأشاروا جميعًا بالرجوع. فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله؟ قال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطته واديًا له عدوتان[1] إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدية رعيتها بقدر الله؟.. وما رام[2] مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف فحسم الخلاف برأى النبى فى الخروج من أرض الطاعون والقدوم إليها حيث قال عليه السلام: "إذا سمعتم به بأرض تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها".

فكان إيمانه بصرًا لا يهجم على عمياء، ولا يستلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب، وكانت نصيحته العامة للمسلمين فى أمر الطاعون كرأيه الخاص فى أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستنفاذ ما وجدوا له سبيلا وكتب إلى أبى عبيدة: " إنك قد أنزلت الناس أرضًا غمقة - أى وخيمة - فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة[3]" وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم فى هذه الأيام.

كذلك لم يكن يؤمن بشىء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما أسلمته[4]: إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"

(١) العدوة: المكان الواقع.
(٢) رام: بربح وترك.
(٣) النزهة: المرتفعة.
(٤) استلم الحجر الأسود أى لمسه أما بالتقبيل أو باليد.

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التى تابع رسول الله تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ويتبركون بها، فأوعدهم[1] وأمرهم بها أن تقطع، مخافة أن تسرى إلى الإسلام من هذه المناسك وأشبابها لوثة[2] من الوثنية والتوكل على الجماد.

وربما التبس الأمر من نوادر عمر فى التقشف واجتناب المنع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين.

فلا يلتبس الأمر هذا الملتبس، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التى صبحت تلك النوادر، ففسرتها ودلت على الغرض منها.

فعمر كان مسلمًا كان خليفة للمسلمين، وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك فى عمله وينزه يده وأيدى أهله عما ليس لعم يحق بها سلطان الحكم أو بيت المال، ثم يفى لذكرى صاحبه الذى خلفه على المسلمين، فلا يعيش فى مكانه خيرًا من عيشته، ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه لآله وذويه.

وعمر الذى كان يقنع بالجيش الغليظ من المأكل والملبس، ويأبى أن يذوق فى المجاعة مطعمًا لا يسع جميع المسلمين إنما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية، وقد وجد متهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضل ملبس. فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توخاه خليفة النبى فى معيشة أهله، مما يشبه تقشف النساك.

وعلى هذا كله كان أعلم الناس أن الطيبات حلال، وأن النهى عن الحلال تنطع فى الدين يأباه الإسلام.

---

(١) أوعد: تستخدم فى الشر، أما وعد فتكون فى الخير. (٢) اللوثة: الحماقة.

كتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال، فأنكر عليه ذلك وأجابه: (إن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات، فقال تعالى فى كتابه العزيز "يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بما تعملون عليم". وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم وتريحون الأبدان النصبة[1] فى قتال من كفر بالله).

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيدهم وبين أيديهم القصاع، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غلظ وزيت! فقال حذيفة: أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم ودعوتنى على هذا! إنما دعوتك على طعامى، فأما ذاك فطعام المسلمين.

فالمسلمين حل ما شاءوا من الطعام أما الرجل الذى يتفق من بيت المال فله ما يكفيه. والحرج كل الحرج عليه - وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده - أن يأخذ منه لا حاجة به إليه، وأنه ليزداد حرجًا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرًا مما أصاب الرسول.

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التى ترضاها الرجولة، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما يتولاه، بل ربما لا مهم على التقتير كما كما يلومهم على الإسراف.

أنكر على عامله فى اليمين حللا مشهرة ودهونًا معطرة فعاد إليه العام الذى يليه أشعث مغبرًا عليه أطلاس[2]: فقال: لا. ولا كل هذا.. إن عاملنا

---

(١) النصبة: التى أصابها النصب، وهو التعب.

(٢) اطلاس: جمع أطلس وهو الثوب الوسخ.

ليس بالشعث ولا العافي[1]. كلوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم.

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع من لم يكن من أهل الإسلام. فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية. وإنما يصبح حقًا جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه.

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين فى إسلامه.

فلو كان الإسلام ظالمًا بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشد المسلمين ظلمًا لهم قسوة عليهم. لكنه كان فى الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم منذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملا بأدبه.

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه.

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفضاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه.

كتب للنصارى فى بيت المقدس أمانًا على أنفسهم وأولادهم ونساهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن، وحان وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده، وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر! ثم كتب كتابًا يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد مهم على الدرجة إلا واحدًا واحدًا غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

---

(١) العافى: طلب المعروف، والشعث: الوسخ الجسد أو المتلبد شعر رأسه.

وكذلك كان يفعل فى كل موضع صلى فيه من الكنائس التى عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكناها.

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت.

فكتب لهم العهد الذى قال فيه: " . . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلباتهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا تسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما أهل المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوت[1]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم[2] فإنهم آمنون وعلى بغيهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. . ".

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان.

وأنه قد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا ينفع بها حتى يشفعها بالوصاة للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفى لهم بعهدهم وينضح[3] عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم: كُتب بذلك إلى أبى عبيدة كما كتب إلى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت.

وما شكا إليه مظلوم من أهل الذمة واليًا كبر أو صغر إلا نصفه منه.

---

(١) اللصوت: اللصوص، مفردها لصت.

(٢) البيع: جمع بيعة وهى معبد النصارى، والصلب جمع صليب.

(٣) ينضح عنهم: يدافع عنهم.

بعث زياد بن حدير الأسدى على عشور[1] العراق والشام. فمر عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوموها بعشرين ألفا، فخبره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفًا أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة، فأعطاه التغلبى ألفا وأمسك فرسه. ثم مر عليه راجعًا فى سنته فطالبه بضريبة أخرى، فأتى وشكاه إلى عمر وقص عليه قصته، فما زاد على أن قال له: كفيت! ثم رجع التغلبى إلى زياد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى، فوجد عمر قد كتب غليه: من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئًا إلى مثل ذلك اليوم من قابل![2].

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم، وأنهم أوغروا صدره فقال فيهم يتوعدهم:

إذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ[3] فغيك منى تغلب ابنة وائل

فخشى أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم، فعزله، وأمر غيره.

ولعل حاكما من الحكام لا يرام منه أن يبلغ فى البر بمخالفيه فى الدين مبلغا أكرم وأرفق من إجراء الصدقة على فقرائهم، ولاسيما الحاكم الذى يدعو إلى دين جديد.

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر وقال: ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين. فمر فى أرض دمشق بقوم مجذمين[4] من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

---

(١) العشور: ضرب من الزكاة. (٢) من قابل: أى بعد عام.

(٣) المشوذ: العمامة.

(٤) مجذمين: مصابين بالجذام وهو مرض قد ينتهى بصاحبه إلى تآكل الأعضاء وسقوطها.

وإذا أحصيت له فى سيرته الطويلة وخطًا تحرم الذمين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جمعيه عن حكمه توجبها سياسة الدولة، ويقرها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو عن رغبة فى حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقًا هم أحرار فيه.

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهى عن استخدام بعض الذميين، ومنعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى إبان الفتوح، والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض.

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع إلى ما قاله فى ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة. فقال: "إنى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا"(١).

وطلب يومًا من أبى موسى رجلا ينظر فى حساب الحكومة فأتاه بنصرانى، فقال: إنى سألتك رجلا أشركه فى أمانتى فأتيت بمن يخالف دينه دينى. وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها: أنهم أهل رشا. ولا تحل فى دين الله الرشا.

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى، فأعتقه وأطلقه وقال له: اذهب حيث شئت!..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة إلا إيثارًا للعدل وكراهة للرشوة والزيغ فى الحكومة، وما نظن أحدا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن يجتنب فيه مثل هذه الآفة. إذ

---

(١) الرشا: جمع رشوة.

يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهم قبل أن ينظروا إلى منفعتها وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها، والرغبة فى خيرها وخير أهلها، ولاسيما فى زمن كانت الدول تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان.

وما من أمة فى عهدنا تبيح الوظائف العامة إلا بقيود وفروق متفق عليها: أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن فى استخدامهم منفعة عامة.

وهذه هى سياسة عمر فى مسألة الوظائف القومية، بغير إعنات للدولة ولا إعنات للرعية، وكفى باتقاء الإعنات أن العبد المملوك بخير فى الوظيفة والإسلام فيأبى، فلا يصيبه من ذلك ضيم، ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء.

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكراهته أن يبدلوا أزياءهم التى ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة؟ أكانوا يتشبهون بهم حبا لمذيبهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالإسلام.. أم يتشبهون بهم كيدا لهم ورغبة فى التسلل بينهم والإفلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجبه الدولة عليهم فى تلك العهود والالتزامات؟..

إن كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه، وبخاصة فى الزمن الذى كان المسلمون فيه جميعًا فى حكم الجنود، وما من دولة أن نبيح أزياء جنودها لمن يشاء.

وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد إلا وقد غدر بذمته وكرر الغدر مرة بعد مرة، كما صنع أهل خيبر.

ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران.

فقد صالحهم النبى على أن يبقوا فى مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه إجلائهم. فاستحب هذا الجلاء.

على أنه لم يكن يأبى عل التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور. فلما كتب إليه المشركون من أهل منيج أن "دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا[1]" شاور أصحاب النبى فأشاورا عليه بقبولهم. فدعاهم إليه.

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التى لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها. فأول الأمرين إن الجزيرة حرم الإسلام الذى كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرس بالعراق والروم والشام ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم من غدر بأهله، بل فيهم من هؤلاء كثيرون.

وثانى الأمر أن عمر قد سوى بين الإسلام والنصرانية فى هذه الخطة، فحفظ حرم النصرانية بيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره.

وقد أحمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة، فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأفظعهم النجرانية عنه الكوفة؛ وكتب لهم وصاة قال فيها: ". . هذا ما كتب له عمر أمير المؤمنين لأهل نجران. من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين. . ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا[2] من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله. .

(١) تعشرنا: أى تدعنا تؤدى العشور.

(٢) اعتمل: اعتمل فلان، عمل لنفسه وتصرف فى العمل.

ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم - البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم".

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يختار بعدة بالذميين كافة "أن يوفى بعدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم[1]. . ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل ما اتخذت من حيطة حربية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية، وإن عذرها لدون عذر عمر فى خططه، إن أسبابها لدون أسبابه فى الإقناع.

كان مسلما شديداً فى إسلامه، فلم تكن شدته فى إسلامه خطراً على الناس، بل كانت ضمانا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة.

وكان جاهليا فأسلم، فأصبح إسلامه طورا من أطوار التاريخ. ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار.

وكان هذا الرجل يجب ويكره كما يحب الناس ويكرهون، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضرك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضح القضاء. قال يومًا لأبى مريم السلولى قاتل أخيه: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح! فقال له أبو مريم: أتمنعنى لذلك حقًا؟ قال: لا. . قال: لا ضمير! إنما يأسى على الحب النساء.

وحسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه، فذلك المسلم الشديد فى دينه، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق.

---

(١) يقاتل من ورائهم: يحميهم.